

مجلة

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

إسلامية - فكرية - ثقافية - محكمة

العدد التاسع

١٤١٥ هـ

١٩٩٥ م

الإعجاز العلمي للقرآن والسنة «النظرية والتطبيق»

أ. د. حمودة محمد داود سند*

مقدمـــــة :

الحمد لله بديع الأرضين والسموات، المستغني عن نفي المثيل بما فى مخلوقاته من الآيات، والصلاة والسلام على رسوله الكريم المؤيد بالمعجزات الباهرات، وعلى آله وصحبه ذوي الفضل والكرامات.

وبعد

فيراد بالتفسير عند علماء اللغة: الإبانة والكشف حيث إنه مصدر للفعل فسَّر بتشديد السين، الذى هو مضاعف فسر بتخفيفها. ومصدر المخفف : الفسر بسكون السين، ومضارعه من باب نصر ولما كان التضعيف للتكثير وليس للتعدية؛ خصه الراغب في مفرداته بإبانة المعقولات لكثرتها.

والغرض منه في كل عصر ومصر بيان هدايات الله تعالى في الأحكام التشريعية والأخلاق والآداب الاجتماعية والإنسانية بما يكشف عن صلاحية القرآن أن يكون دستورا للأمم في كل زمان ومكان، وأنه تنزيل ممن خلق الأرض والسموات العلا، لا يقدر أحد على الإتيان بمثله، وهو المراد بالإعجاز. ويستلزم ذلك أن يستعين المفسر بالحقائق العلمية التى هدى الله تعالى إليها البشر، لإظهار المراد في الآيات الكونية، بقدر الطاقة البشرية حتى يقيم الدلائل القرآنية لعلماء الكونيات على أن القرآن من عند الله تعالى وليس من عند بشر، وأن الرسول ﷺ مرسل به حقا من الله جل شأنه.

---

* أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر ـ كلية الدراسات الإسلامية والعربية

ولا ينبغى التحرج من القول؛ الإعجاز العلمي أو التفسير العلمي، فإن مفهوم ذلك وهو وجود إعجاز غير علمي أو تفسير غير علمي مرفوض بداهة، والتسمية بذلك من قبيل مسايرة التطور الدلالى للفظ «علم» الذى صار علما بالغلبة على إدراك المحسات الخاضعة للتجريب والمشاهدة في عصر النهضة الحديثة.

وقد ثبت ببحث علمى قدم في السبعينات للمناقشة والحكم وأجيز،(١) أن التفسير بهذا المعنى الذى مرَّ وهو «استعانة المفسر بالحقائق العلمية.. إلخ لإقامة الدلائل القرآنية لعلماء الكونيات على أن القرآن من عند الله تعالى، وهو ما يعرف بالإعجاز العلمي - هذا التفسير بهذا المعنى وذلك الإعجاز، قديم قدم التفسير المعروف ولكن لندرته لم يفطن إليه في القديم ، ولم يأخذ حظه من الذيوع والانتشار الا في القرن الحاضر، وذلك للكم الهائل من المعارف والحقائق التى أثمرها العلم التجريبي، بخلافها في العصور المتقدمة، فكانت متفاوته نسبيا بحسب مقدار التقدم وكان استخدامها متفاوتا أيضا.

وبمقدار ذيوعه وانتشاره في هذا العصر كانت مواقف الرافضين له. ومع تفاوتها فى المناوأة قوة وضعفا لم تنل منه، وذلك لاستناده إلى أمرين بديهيين :

أولهما :

أن القرآن كلام الله عز وجل، فهو الكون المقروء، والكائنات التى هدى الله تعالى إلى حقائق بعضها وأنواع من العلاقات بينها هى الكون المنظور فإذا ورد حديث في القرآن عن بعض هذه الكائنات فلن يكون إلا

---

(١) البحث هو «تفسير القرآن الكريم والعلوم الحديثة» للمؤلف قدم سنة ١٩٧٦ للحصول على درجة العالمية «الدكتوراة».

حقا وصدقا، لأنه حديث الخالق عمن خلق وعما خلق، قال تعالى ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾(١)

أو بتعبير أحد أساتذتنا :(٢) لا يمكن أن يتعارض الكون المنظور مع الكون المسطور.

ثانيهما : أن القرآن الكريم هو الحجة لرسول الله ﷺ على رسالته والبينة على صدقه، وهو في الوقت ذاته؛ كتاب الهداية إلى ما ارتضي الله تعالى لنا من الدين والأخلاق والسلوك، أى أنه الدليل والمدلول معا.

ولما كانت رسالة الرسول ﷺ عامة عموم الزمان والمكان كان من البدهى أن يحمل القرآن أدلة صدقه لجميع الناس في كل زمان ومكان على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وعلومهم ومعارفهم، لكل صنف ما يناسبه من الحجة.

ودلالة القرآن على نفسه أنه من عند الله تعالى لهؤلاء العلماء هو ما يسمى بالإعجاز العلمي، وذلك هو ما أحاول تجليته في هذا البحث، لينطلق المسلمون إلى دعوة الناس في عصر العلم على بينة وبصيرة، كما سأنهج فيه نهجا جديدا؛ يبين كيفية الاستفادة من القرآن وتدبره، وجعله قوة دفع للتقدم في عصر العلم هذا، كما كان شأنه عند أسلافنا في العصور الأولى، فتبوأوا به أرفع الدرجات وسادوا به عالمهم.

عسى أن نسود كما سادوا ونمحوا من أذهان غير المسلمين أن قرآننا كتاب عبادة فقط، والله أسأل أن يلهمنى السداد في القول والإصابة في الرأي إنه سميع مجيب

---

(١) سورة الملك الآية رقم «١٤».

(٢) هو فضيلة أستاذنا الشيخ محمد الغزالي قال ذلك في إحدى محاضراته لنا بكلية أصول الدين بالقاهرة.

وجه الدلالة لعلماء الكونيات على أن القرآن بوحي من الله تعالى

لا يخرج العلم المادي والمنطقي كلاهما عن كونهما إدراكا لحقائق بعض الأشياء أو النسبة بينها، وحقائق الأشياء أو النسبة بينها هى ما خلق الله تعالى الكائنات عليه منذ خلقت وأنشئت. أو ما سمي في الفكر الديني بالسنن الكونية التي خلق الله تعالى الكون عليها.

والعلم الحديث ليس إلا هدايات إلهية للبشر في القرون الأخيرة لبعض هذه الحقائق والعلاقات بين الكائنات، كما أن الفروض والنظريات العلمية التي لم تمحصها التجربة لها نظائر في الفكر الديني أيضا؛ فهي ما يطلق عليه في علم أصول الفقه «السبر والتقسيم» إذ تختبر فيه الأوصاف التي يحتمل أن تكون علة للحكم، ويطرح مالا يصلح للعلية، وتبقى العلة الصالحة، وهي التي يقاس عليها عند التعرف على أحكام الحوادث المستجدة، ولو طبقت هذه الطريقة على الآيات الكونية لكان للمسلمين في العلوم الحديثة شأن آخر أكبر من شأنهم في هذا العصر، وكانوا قد قاموا بامتثال أوامر السير والنظر والتدبر الواردة في أكثر من آية.

فإذا ظهر عند التطبيق لهذه الطريقة اتفاق الوصف القرآنى على الوجه الذي ترتضيه قواعد العربية بوجه عام والقواعد الشرعية مع مكتشفات العلم لحقائق وعلاقات أثبتتها التجارب؛ كان هذا هو الدليل على أن القرآن كلام الخالق لتلك الكائنات، وليس من كلام البشر أو أحد من الخلق.

وفي تذييل آية سورة الملك بقوله ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ إشارة إلى ما يمتاز به العلم الإلهي من أنه ينفذ إلى الباطن في جميع الكائنات.

فـاللطــيف : هــو العليم ببــواطن الأمــور وحقــائقهــا، والخبير : العليم بظواهرها.

أما العلم البشري فيتعلق في معظمه بالظاهر كما قال تعالى ﴿يعلمـون ظاهرا من الحياة الدنيـا﴾(١) وعلى الـرغم من أنـه لا يمكن أن يتعـارض الوصف القرآنى مع حقيقة أى كائن من الكائنات، انطلاقا من آيـة سـورة الملك؛ ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير» ومقتضى الإيمان بها، وأنـه لا يمكن تصور هذا التعارض إلا إذا كان بين قرآن وظن أو جهل بظـواهـر الكون، أو كان بين فهم خاطىء للآية القرآنية وعلم؛ إلا أن كثيرا من علماء المسلمين أنكروا التفسير العلمي والإعجاز العلمي تخوفا على القرآن من تغير النظريات العلمية،(٢) وهكذا صور لهم الوهم، ومـا كـان ينبغي التخـوف وهم يقرأون قوله تعالى ﴿ولقـد جئنـاهم بكتـاب فصلنـاه على علم هـدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾.(٣)

وقوله تعالى ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختـلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾(٤)

وقوله عز وجل ﴿سنريهم آياتنـا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد﴾.(٥)

فكتاب ديننا مفصل على علم، وفيه آيات للعالمين على صدقه وتنزلـه من عند الله جل شأنه، وهى واضحات الدلالة لأهل العلم عامـة ليس فقط

---

(١) سورة الروم جزء الآية رقم «٧».

(٢) جعلنا فصلا خاصـا بـذلك في رسـالتنـا للـدكتـوراة بعنـوان «التفسير العلمي في أقـوال المعارضين» في باب الدراسة النقدية.

(٣) سورة الأعراف الآية رقم «٥٢».

(٤) سورة الروم الآية رقم «٢٢».

(٥) سورة فصلت الآية رقم «٥٣».

للعالمين بالألسنة والألوان، بل للجميع على اختلاف تخصصاتهم كما تشير إلى ذلك الآية الأولى من سورة النور ﴿وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون﴾ لأن التذكر والاتعاظ لا يكون إلا بالآيات الكونية التي هي موجودة قبل الآيات التشريعية التي لم تعرف إلا بنزول السورة، فالتذكر لا يكون إلا لما كان موجودا ثم نُسي أو تُغوفِل عنه.

وسيظل معطاءا دائما للعلماء في كل عصر مما يدل على أنه الحق كما وعد تبارك وتعالى بسين الاستقبال التي ستظل كذلك مهما تقدم العلم إلى أن تقوم الساعة ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ !!

المنهج المنشود للإفادة من الإعجاز العلمي للقرآن

لا يكفي التباهي بأمجاد أسلافنا السابقين في العصور الأولى، حتى لا يقال نعم الجدود ولكن بئس ما خلفوا، أو يقال :

وما الفخر بالعظم الرميم وإنما ★ فخار الذي يبغي الفخار بنفسه

والطريق إلى المجد سهل ميسور لمن أراد وصح عزمه وصدقت نيته لخصها لنا أحد سادة العرب في القديم في كلمة موجزة أجاب بها عن سؤال وجهه إليه أحد المعجبين به والمقدرين له حين قال : بم سدت قومك وليس عندك ما عندهم من علم أو مال ؟ فرد عليه قائلا: لأنني استعملت علمي. وتلك إجابة حكيمة، لأن تحقيق التقدم في أي فرع من فروع الحياة حتى العلم بوجه عام والعلم المادي الحديث لا يتم إلا باستخدام العلم الذي

تعلمه الفرد أو الأمة، وهو ما يمتدح به في العلم المادي بأن أصحابه يستخدمون ما يسمونه «التكنولوجيا» وما هى عندهم إلا تطبيق نتائج العلوم.

ومن البدهي أن حمل العلم دون استخدامه قد ذُمَّ في القرآن الكريم ومثل لمن هذه صفته بأقبح مثل كما جاء في قوله تعالى ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذّبوا...﴾(١) وهذه بعض الأمثلة أسوقها لأضيء بها شعلة على طريق التقدم العلمي متخذين من القرآن الكريم حافزا وهاديا، عسى أن نمسك بالراية مرة أخرى، وسأحاول إزالة المخاوف والأوهام من أذهان المعارضين - تلك التي صورها الوهم أو التكاسل عن البحث العلمي القرآنى - فيما أعطيه من أمثلة. وإليكم ما يتحقق به الغرض :

(من الإعجاز التاريخي)

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم ﴿غلبت الروم، في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون، في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون، بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.(٢)

وقبل توضيح فكرتنا التي يغلب على ظني أن علماء المسلمين في عصر النهضة بل العامة منهم كانوا ينظرون بها إلى القرآن الكريم أقول للمعارضين لهذا اللون من التفسير وبيان إعجاز القرآن لأهل العلم

---

(١) سورة الجمعة الآية رقم «٥».

(٢) سورة الروم الآيات «٢ : ٦».

الحديث، إن قولكم؛ ليس القرآن الكريم كتاب تاريخ أو فلك أو طب... إلخ، بل هو كتاب هداية وتشريع؛ قول حق. لكنه غير جامع لما امتاز به القرآن عن بقية الكتب السماوية، فقد ترك ما أثبته الله لكتابه زيادة على ما قالوه في قوله تعالى ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب، ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾.(١) وقد يستغل أعداء ديننا ذلك القول القاصر، ليظل المسلمون في مؤخرة الأمم، ولا يحتلون مكان القيادة والريادة كما كان أسلافهم.

وأعود لتفسير آيات سورة الروم الماضية لتوضيح الفكرة، وبيان ما ينبغي للمسلمين أن يتدبروه من القرآن.

وبالنظر في الآيات الماضية نجد الله عز وجل يخبرنا فيها بحدث تاريخى وهو هزيمة الروم في حربهم مع الفرس، ويعد المؤمنين بأن الروم ستهزم الفرس بعد عدد من السنين، ولو كان القرآن كتاب تاريخ لأخبرنا بذلك على هذا النحو : غلبت الروم في سنة كذا في مكان كذا وهم من بعد غلبهم سيغلبون في سنة كذا بعد خمس سنين أو ست أو سبع وهكذا. لأنه الناصر في الحقيقة وولي أهل كتابه...

أو : غلبت الروم ـ بفتح الغين واللام ـ في سنة كذا.... وسيغلبون ـ بالبناء للمفعول ـ في سنة كذا وكذا، لأنه الناصر لمن يشاء وإن كانوا ليسوا من أهل كتابه... ولكن الإخبار عن ذلك أتى على هذا النحو من البيان الذي يحقق الهداية إلى العقائد الصحيحة ـ عن الحياة وشؤونها، ولا يتصادم مع فهم العامة والخاصة، فالألفاظ التي أخبر بها عن الحدثين وتاريخيهما ـ وكانت خالية من الشكل الإعرابي كما نعلم ـ تعبر عن الحدثين بأي صورة وقعابها، هزيمة الروم أولا ثم انتصارها، أو انتصارها ثم هزيمتها. أما

---

(١) سورة يوسف عليه السلام آية رقم «١١١».

وقت حدوثهما، فقد دل عليه هذا اللفظ المجمل «في بضع» ليصدقه كل من سمعه سواء في وقت نزوله أو بعده بسنة أو اثنتين أو ثلاثة.

ولو سلك مسلك المؤرخين في اختيار اللفظ العلمي لتحديد تاريخ الحدث وقال في خمس سنين أو ست سنين، لتوهم العامي الذي يتلقى الخبر بعد سنة أو سنتين من نزول الآيات به، أن التحديد غير دقيق، لأنه لن يفكر عند السماع إلا في الخبر وتاريخه وقت السماع، ويترقب النصر أو الهزيمة من ذلك التاريخ، دون أن يفكر في وقت نزوله، وستنقص المدة عن تلك التي ذكرت في الآية، فيتوهم خطأ الآية، هذا وتلقي العامة للأخبار من هذا النوع، أما الخاصة فهم الذين يتحققون من صدق الأخبار بالطرق العلمية، ويمكنهم معرفة صدقه عند التشكك في صحته. والقرآن الكريم قد نزل لهداية العامة والخاصة. ولهذا فقد جاء باللفظ الدال على التاريخ مجملا «في بضع سنين» ليكون محل صدق وقبول لكل فرد فمن وصله الخبر في حينه، فالبضع يطلق على المدة الحقيقية بين الحدثين ومن وصله بعد سنة أو اثنتين، فهو يطلق أيضا على المدة ما بين وصول الخبر وحدوث النصر أو الهزيمة. وقد نزلت القراءات بالأوجه التي يؤديها الرسم العثمانى، بما يدل على أن القراءات والرسم، قد فُصِّلا على علم لإيجاد مجال للبحث والنظر اللذين أمرنا بهما في كثير من الآيات، حتى نصل في النهاية إلى تطابق الدين والعلم، وإلى دلالات جديدة لأهل العلم على صحة الدين.

(من الإعجاز الفلكي والاحيائي)

وذلكم مثال آخر يتصل بعلم الفلك أو الطبيعة الجوية، وقد اخترته من بين أمثلة كثيرة؛ لما في مناقشة وجه الإعجاز العلمي فيه من تأصيل الفكرة التي كتب البحث من أجلها، ولما في أسلوب الآيات من هدايات إلى طريق التقدم العلمي في أنواع من العلوم الحديثة.

هذا المثال هو قوله تعالى ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون، وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون، وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون﴾(١) وتتداخل موضوعات هذه الآيات كما نرى إذ بدأت الآية الأولى بما يتصل وموضوع علم الفلك ثم انتقلت إلى ما يتصل بموضوع علوم الحياة من نبات وحيوان، وتحدثت الآية الثانية عما يتصل بموضوع علوم الأرض وعادت الآية الثالثة إلى الحديث عما يتصل بعلم الفلك مرة أخرى وهذا التداخل مما ينفي أن يكون الحديث عن موضوعات تلك العلوم هو الأصل أو المقصود لذاته، لأن المقصد الأصلي هو الهدايات الإيمانية، أما الحديث عن موضوعات تلك العلوم فتابع لتعميق تلك الهدايات وترسيخها في القلوب. وذلك مما ينفي بداهة أن يكون الحديث عن الإعجاز العلمي من بعض العلماء ناشىء عن اعتقاد أن القرآن كتاب فلك أو طب أو ما شابه ذلك، فإن نفي هذه الصفة عن القرآن مما لا يختلف فيه اثنان. ولو كان حديث القرآن الكريم عن هذه الأمور الأربعة: ـ نشأة السموات والأرض، أصل المخلوقات الحية، حركة الأرض، حقيقة السماء ـ من قبيل الحديث العلمي لجاء على أسلوب آخر غير هذا الأسلوب، كأن يقول ـ مثلا ـ : كانتا شيئا واحدا من مادة كذا وكذا ثم انفصلتا لسبب كذا وإنا قد جعلنا الماء أصلا لكل حيّ، أو جعلنا كل حيّ لا يحيا إلا بالماء وجعلنا الرواسي في الأرض لئلا تتحرك.... الخ.

لكن الحديث في الآيات جاء على هذا الأسلوب البيانى الذي يحقق الهداية، ولا يقف حجر عثرة أمام الباحث بالمصادرة على ما يطلب إثباته، بل يضعه بأسلوبه هذا أمام عدة اختيارات وفروض ليقوم باختبارها، حتى يصل إلى الوصف الذى يصلح علة للظاهرة الكونية فإذا وصل إليه

---

(١) سورة الأنبياء الآيات رقم «٣٠ : ٣٢».

تمسك به وطرح ما عداه، وهذا شأن من يكِدُّ في سبيل الحصول على شيء، ولن يكون ما وصل إليه بعد البحث إلا ما يؤكد الإيمان بأن الله تعالى هو الحق، وما أنزله على رسوله هو الحق والصدق.

فابتدأ الحديث في الآيات المتعاطفة للاشتراك في الحكم الذي يراد اثباته بها؛ بهذا الاستفهام التقريري الذي يؤكد رؤية أو علم الكفار بهذا الأمر المتحدث عنه، لاحتمال أن تكون «ير» بصرية أو علمية، أما تأكيد أنهم رأوا أو علموا ما تتحدث عنه الآية فقد جاء من التعبير بالهمزة والواو اللذين يستلزمان مقدرا بينهما تعطف عليه الواو. إذ تقدير الكلام كما يقول علماء البيان: أعموا ولم يروا، أو : أجهلوا ولم يروا أن السموات والأرض... إلخ. والتوبيخ على ترك النظر أو العلم دعوة إلى النظر أو العلم، فما خوف المسلم إذن إذا كان الله هو الذي يدعو إلى ذلك، بل يوبخ على تركه.

ثم جيء بلفظين كليين جامعين لجميع الأجرام العلوية والسفلية، لأن السماء كل ما علا والأرض كل ما سفل عند كل عربي، ولا يتناقض هذا مع يراه علماء الفلك من أن العلو والسفل أمر نسبي، فكل ما في هذا الفكر الفلكي المبني على المشاهدة البصرية والعلمية أن بعض الأجرام الفلكية قد تكون سماء بالنسبة إلى غيرها، وحينئذ تدخل في عداد السموات :

ثم قال «كانتا رتقا» بمعنى أنهما كانتا ملتصقتين، ويتسع هذا لاحتمال أنهما من جنس واحد أو من جنسين مختلفين، فلا يتعارض الاختلاف في الجنس مع الالتصاق، كما يحتمل هذا التعبير أن كلا منهما كانت ملتصقة بشيء آخر - كما سنراه من تفسير ابن عباس - ففصلهما أو ففصل كلا منهما مما كانت ملتصقة به أو ملتصقا بها. وهذه الاحتمالات تعطي الفكر والعلماء مجالا أرحب للنظر ولاختبارها، حتى يصل علماء الماديات إلى ما يهديهم إلى الله جل شأنه.

وكذلك قوله سبحانه ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ يحتمل أن

يكون ؛جعلناه أصلا للحياة كما في قوله تعالى ﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾(١) ويحتمل ـ أيضا ـ أن يكون ؛ جعلناه أساسا لا ستمرار الحياة، والعامة يدركون المعنى في كليهما ويهتدون به إلى الله عز وجل، والخاصة من أهل العلم يدركون أكثر من هذا، فنراهم يتحدثون عما يسمى «سيتوبلازم» ذلك السائل الهلامي الذي بالنواة في أي خلية حيوانية أو نباتية، ويقوم بجميع الوظائف الحيوية للكائن بل للخلية الواحدة للكائن، هذا عن الاحتمال الأول، أما عن الثاني، وهو أهميته لاستمرار الحياة؛ فيذكرون أن الماء يمثل تسعين في المائة من وزنه، وأنه ضروري لصنع المواد «الكربوهيدراتية» كالسكر والنشا، ولامتصاص الأملاح من التربة، وهو ضروري لرفع العصارة الغذائية المتصه من التربة إلى الساق والأوراق، وتلطيف درجة الحرارة، وكذلك أهمية الماء لاستمرار الحياة بالنسبة إلى الإنسان مع اختلاف البنية.(٢)

ولاشك أن الزيادة من هذه المعارف مما يعمق الإيمان والهداية عند المؤمنين من العلماء، ويأتى بهما عندغير المؤمنين إذا رأوا تطابق ما توصلوا إليه مع إشارات القرآن إليها أو حديثه الصريح عنها. فإذا ما انتقلنا إلى قوله سبحانه في الآية التالية ﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم﴾.(٣). وموضوعه يتعلق ـ كما نرى ـ بجزئية من جزئيات علم الفلك وعلوم الأرض في آن واحد، لوجدنا أنه أيضا ليس على طريقة علماء الفلك أو الجيولوجيا في التعبير عن حقائق هذين العلمين. وإنما جاء على هذا الأسلوب البيانى العلمي في آن واحد، فبدلا من أن تذكر الجبال بالاسم كما

---

(١) سورة النور الآية رقم «٤٥».

(٢) انظر كتاب : الماء غذاء ودواء للدكتور عبد العزيز شرف ط الهيئة المصرية للتأليف والنشر العدد ٢٤٣ وانظر مجلة رسالة العلم عدد ٤ مجلد ٣٦ ديسمبر سنة ١٩٦٩ (ص ٢٥٨، ٢٥٩) ط دار مصر للطباعة مع ملاحظة أن نسبة الماء في الجسم البشري تمثل سبعين في المائة من وزنه.

(٣) سورة النحل الآية رقم «١٥».

في بعض المواضع ذكرت ببعض صفاتها، وهي «رواسي» بمعنى ثوابت، مع تقييد ذلك بكونه في الأرض، حتى لا يصادم ذلك التفكير في كونها متحركة بحركة الأرض أم لا، وحينما علل لحكمة وضعها في الأرض قال ﴿تميد بهم﴾ وهكذا في الآية الأخرى ﴿أن تميد بكم﴾.(١) ويعنينا هنا بدرجة كبيرة هذا التعليل أكثر من بيان أن الأرض جعلت قرارا أو مهادا أو فراشا أو ذلولا، إذ لا يقف أي من ذلك مع الحركة على طرفي نقيض. والمعنى في الآيتين كما جرى في كتب التفسير؛ كراهة أن تميد أو لكي لا تميد؛ وبالمناسبة لا يصح أن يوصف بالكفر إلا من يكذب هذين التفسيرين بهذه الحروف، لأنها ألفاظ القرآن، ولم يزيدوا عليها إلا الألفاظ المقدرة للتوضيح، أما من ينكر معنى من معاني هذه الألفاظ فلا يكون كافرا لأنه ليس منكرا لقرآن، وإنما لفهم فهمه بعض المفسرين من الألفاظ القرآنية، أقول ذلك لأن من علماء المسلمين من قال : إن القائل بحركة الأرض كافر، وذلك لأنه فسر الميدان بمطلق الحركة، وليس له معنى آخر غير ذلك عنده.(٢) مع أن هذا اللفظ قد اختير في الآية دون ما يماثله في الخفة ويدل صراحة على نفي تحرك الأرض وهو؛ أن تحرك بهم أو بكم فإذا كان لفظ «تميد» هو المختار فلابد وأن يكون ذلك لإعطاء الحرية لعلماء الفلك لكي يبحثوا عن نوع حركة الأرض وكيفيتها، لأن هذا اللفظ يستعمل في لغة العرب بمعنى : تحرك، ففي مختار الصحاح : ماد الشيء تحرك، ويستعمل بمعنى : تحرك يمينا وشمالا وأماما وخلفا. ففيه أيضا : مادت الأغصان تمايلت. وفي القاموس زيادة على ذلك؛ ماد تحرك وزاغ وزكا، وماد السراب : اضطرب، وماد الرجل : تبختر.(٣)

---

(١) سورة النحل الآية رقم «١٥».

(٢) أنظر المسائل الكافية لابن يوسف الكافي ص ١٠ : ١٣ ط حجازي بالقاهرة سنة ١٣٥٣هـ.

(٣) أنظر المسائل الكافية لابن يوسف الكافي ص ١٠ : ١٣ ط حجازي بالقاهرة سنة ١٣٥٣هـ.

وقد آثرت الرجوع إلى كلام الشيخ نفسه وما نقله عن مختار الصحاح والقاموس ليكون الرد عليه من كلامه وأدلته، فذلك أبلغ في المواجهة وألزم لإقامة الحجة عليه.

فللعلماء أن يبحثوا عن نوع الحركة التى منعت الأرض منها بإرساء الجبال فيها، وقد بحث غير المسلمين ووجدوا أنها الحركة المضطربة التي تؤديها معانى «ماد» وقد علمنا القرآن الدقة في اختيار الألفاظ في قوله تعالى ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا....﴾(١) لكننا نؤثر الراحة، ونحمل الألفاظ على ظاهرها دون تدبر وبحث عن أسرارها اللغوية والبلاغية، وفي ذلك مخالفة من وجهين؛ الأول : عدم التدبر الذى كلفنا به في قوله تعالى ﴿أفلا يتدبرون القرآن...﴾(٢) الثانى : إيجاد فرصة لأعداء القرآن للطعن فيه، وتقدمهم وتأخر المسلمين.

الأمر الرابع : حديثه عن السماء في قوله تعالى ﴿وجعنا السماء سقفا محفوظا﴾.

وإذا كان لفظ السماء من ألفاظ العموم كما علمنا، إلا أن الإطار الذي ينبغى للعلماء البحث فيه، قد حدد في الآية وهو؛ السماء التي هي سقف للمخاطبين، وما الذي حفظت منه، هل هى فضاء الأرض، أي الغلاف الهوائى لها، وقد حفظ من التشتت والانتشار ؟ أم هو الفضاء اللانهائي الذي تسبح فيه النجوم والكواكب، وهو بناءٌ لبناته هذه النجوم وكواكبها ؟ وحفظه من السقوط، كما في قوله تعالى ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾.(٣) أو من الانفطار والتشقق حتى يؤذن بقيام الساعة وانتهاء الدنيا ؟ كما في قوله تعالى ﴿إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب

(١) سورة الحجرات الآية «١٤».

(٢) سورة النساء من الآية رقم «٨٢»، سورة محمد من الآية رقم «٢٤».

(٣) سورة الحج من الآية رقم «٦٥».

انتثــرت﴾، ﴿إذا السماء انشقت﴾(١) هــــذا واستعمال اللفظ في الفضاء اللانهائي مما جاء به القـرآن الكـريم في قوله تعالى ﴿.... كشجـرة طيبـة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾.(٢)

ويرشح ما ذكرنـا من أن الآيـة تـوجـه العلماء إلى البحث عن هـذه الأمور تذييل الآية بقوله سبحانه ﴿وهم عن آياتها معرضون﴾ فآيات هذه السماء منها ما هو واضح لجميع الناس العامة والخاصة كالليـل والنهـار والشمس والقمر والنجوم والسحب والرياح والأمطار... إلخ...

وهي أمـور كما نـرى تكـفي في الهدايـة بهـا أي معـرفـة أو مجرد المشاهدة والنظر، أما المعارف الأخرى التي تحتملها الآيـة ولا يمنـع منهـا نص فهي مسوقة لهداية علماء الطبيعـة الجـويـة، ولتعميق إيمان المؤمنين منهم.

(من الإعجاز في الخلق)

أما موضع الدلالـة على ذلك ففي قوله تعالى ﴿ولقد خلقنا الإنســان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفـة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقـة فخلقنا العلقة مضغة فخلقناالمضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾(٣)

والهداية التي سيقت الآيات لتحقيقها، نسبـة خلق الإنســان في جميع أطـواره إلى الـله عـز وجــل، ويكـفي لتحقيق ذلك بالنسبة للعربي الـذي يخلو ذهنه من حقـيقة هـذه الأطـوار؛ تأكيد الخبر بـالقسم والـلام وقـد،

(١) سورة الانفطار الآيتان «١ : ٢»، سورة الانشقاق الآية رقم «١».

(٢) سورة سيدنا إبراهيم «الآية «٢٤».

(٣) سورة المؤمنون الآيات «١٢ : ١٤».

وكل من هذه المؤكدات قائم مقام تكرار الخبر مرة كما يقول أهل اللغة.(١)

والتوكيد والتكرار عاملان قويان من عوامل تكوين الآراء والمعتقدات وإليهما يذهب الزعماء والحكام في خطبهم لإقناع العامة بما يريدون، والرأي لا يلبث بالتوكيد والتكرار أن يصبح عادة ثم معتقدا كما يقول «جوستاف لوبون» في كتابه روح الاجتماع.(٢)

لكن ذلك لا يكفي عند غير العرب أو عند علماء الغرب، فالرجل العربي الخالص كان يغشى عليه حين يسمع قوله تعالى في الآيتين السابعة والثامنة من سورة الطور ﴿إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع﴾، وكان يقول فيما روي حينما يسمع قوله تعالى في الآية الثالثة والعشرين من سورة الذاريات ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾؛ من الذي أغضب الجليل حتى حلف ؟(٣) أما المؤمن المتعرب فيحتاج إلى دلائل أخرى للهداية ومثله غير المسلم. فكان مجيء الآيات على هذا النحو الذي يقدم هذه المعطيات للباحث، ويستطيع الوصول منها وبها إلى أن الله هو القائل وهو الخالق لتطابق القول مع الفعل. يقول عز وجل ﴿خلقنا الإنسان﴾ بأل الجنسية للإثارة والحض على التأكد من ذلك لاختلاف الألسنة والألوان مع اتحاد الأصل واتحاد الأطوار التى يمر بها جميع المخلوقين، كما يعبر عن الأصل بهذه اللفظة التي توحي بكثرة العمليات التي عملت لاستخلاصها واستلالها من الطين ﴿من سلالة من طين﴾ ولعلها ما أشرنا إليه من قبل في امتصاص النبات بواسطة الماء غذاءه من الطين وتمثيله لهذا الغذاء لتكوين الثمار وغيرها.

---

(١) انظر الاتقان للسيوطي «ص ٢١٩ : ٢٢٤».

(٢) انظر ص ١٥٧ ، ١٥٨» ترجمة أحمد فتحي زغلول، القرآن والطبائع النفسية د. العماري - ص١٣٧.

(٣) انظر تفسير القرطبي جـ١٧ ص٤٢ ط دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٩٨٥م.

وقد عطف الطور الثانى على الأول بثم التي تفيد التراخي في الزمن - ولا تمنع من تخلل بعض الأحداث بين المعطوفين - ليوجه العلماء إلى البحث عن معرفة ما يتم بين كونه ﴿سلالة من طين﴾ وبين كونه ﴿نطفة في قرار مكين﴾. من التغذي بالنبات وتمثيل الغذاء وتحوله إلى دم، ثم إلى نطفة تحتوي على عشرات الألوف من الحيوانات المنوية، ثم انتقالها إلى القرار المكين وهو الرحم، لأنها لا تكون أصلا في الطور الثانى هذا إلا إذا اختلطت أو لقحت بويضة المرأة - بتعبير الأطباء - وكانت أمشاجا بتعبير القرآن الكريم ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج﴾(١) أي مختلطة، وكذلك إلى معرفة وتخصيص الحيوان المنوي الذى يتم به التلقيح من بين عشرات الألوف هذه، هل يتم بالأقوى والانتخاب الطبيعي أم بالاختيار الإلهي... إلخ.

وقد جاء التعبير بـ «ثم» - أيضا - عند الانتقال إلى الطور الأخير ﴿فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر﴾ فبين الاكتساء باللحم والخلق الآخر نفخ الروح، وبها صار مغايرا للطور الماضي وصار خلقا آخر أرفع رتبة من ذي قبل، ولذا يقولون إنها للترتيب الرتبي هنا. كما جاء بهذه التسميات؛ نطفة، قرار مكين، علقة، مضغة، عظام، وكلها تثير الهمم وتحث العزائم للبحث عن عللها.

وقد بحث علماء الغرب بلا مثيرات للهمم والعزائم من كتاب مقدس ينقادون له وتجب طاعته، ولم يجدوا أنسب لتشخيص المسميات في تلك المراحل إلا المرادفات لهذه التسميات القرآنية في لغاتهم.

ومن الأمور الهامة جدا اللافتة للنظر، لأنها التعليل الوحيد المقبول ودليل الإيمان لمن يريده ببحثه؛ العطف بالفاء في هذه المراحل ﴿فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما﴾ فالعلقة خلية

---

(١) سورة الإنسان الآية «٢».

محولة عن سابقتها بالانقسام، لكن تحولها إلى خلايا أعصاب وعضلات وعظام بعد ذلك، لا يكون بالانقسام، إذن علته خارجة، والعالم المسلم يرجع ذلك إلى الله عز وجل، إذ لم يترك العطف بالفاء علة لهذا التحول يبحث عنها، فهي للترتيب والتعقيب الذي هو في حقيقته عدم تخلل حدث آخر بين المعطوفين، بغض النظر عن الزمان الفاصل بينهما، بخلاف العطف بـ«ثم» التي توجه الباحث المسلم إلى وجود علل وأحداث بينهما ينبغي أن يبحث عنها.

ولهذا حينما حاول العلماء من غير المسلمين تعليل هذا التحول في الخلايا أرجعه بعضهم إلى البيئة،. كالعالمين «وودورث، ماركيس» مع أن ذلك لم يحل المشكلة، بل دار صاحباها في حلقة مفرغة حيث ذكرا أن تميز الخلايا يرجع إلى اختلاف بيئاتها، واختلاف بيئاتها يرجع إلى تميزها. وهذا نص قولهم المترجم إلى العربية يؤكد هذا المعنى «إن الأصل الوراثي لخلايا الجسم المتعددة واحد، فكلها نشأت بطريق الانقسام عن البويضة الملقحة... ومن ثم فإن التمييز إلى خلايا الأعصاب والعظام والعضلات، لابد أن يكون من أثر البيئة وحدها، والبيئة التى توجد فيها الخلية من خلايا الجنين، غير البيئة التى يوجد فيها الجنين ككل، فبيئة الجنين هي الرحم بما فيها من غذاء ودفء، وبيئة الخلية الواحدة من خلايا الجنين هي مجموعة الخلايا المحيطة بها، وعندما يأخذ بعض التميز في الظهور تحاط الخلية في جزء ما من الجسم بمجموعة من الخلايا تختلف عن مجموعة الخلايا التي تحيط بخلية أخرى في جزء آخر من الجسم ـ وهذا هو موضع التناقض في قولهما ـ ثم قالا : وهكذا تختلف بيئة الخلية في هذا الجزء عن بيئة الخلية في ذاك الجزء من الجسم، وينشأ عن اختلاف البيئتين تميز هذه الخلية إلى خلية أعصاب مثلا، وتميز تلك إلى خلية عظام أو عضلات»(١) وقد فعل مثل ذلك غيرهما من العلماء الأوربيين الذين

---

(١) انظر كتاب «بحوث في تفسير القرآن ـ سورة العلق ص ٨١ ، ٨٢» ط دار الحمامي بمصر سنة ١٩٦١م للمؤلف م/ جمال الدين عياد.

كانوا يبحثون عن أصل مادي للحياة في الأرض يدرك بالحواس، ولما لم يجدوا قالوا: إن أصل الحياة جاء إلى الأرض من كوكب آخر، فزادوا المشكلة تعقيدا بإبعادهم مجال بحثهم إلى عالَمٍ آخر لا يقع تحت وسائل بحثهم وإدراكهم.

وما عدم الايمان بعد الوقوف على آيته إلا لأنهم يبحثون بعيدا عن الدين لما قد تأصل في نفوسهم من معاداة العلم للدين، ولهم عذرهم حث لم يكن دينهم حقا فيلتقي العلم والدين، عند الوقوف على الحد الفاصل بين ما هو في مقدور العلم وما ليس من مقدوره. ولقد كان تفكيرهم على هذا النحو الذي يظهر في قول الأستاذ - شيفر - رئيس مجمع تقدم العلوم البريطانى سنة ١٩١٢م يقول: على أن قبول مثل هذه المذاهب في وصول الأحياء إلى الأرض لا يدنينا من فهم كيفية منشئها، بل يبعد البحث فيها إلى زاوية من زوايا الكون القاصية التي لا يمكن الوصول إليها، ويضطرنا إلى الاعتراف بأننا لا نعلم شيئا عن كيفية منشأ الحياة - وهو صحيح لسوء الحظ - وبأننا لا نستطيع أن نعلم عن هذا المنشأ شيئا في المستقبل - وهو ما نأمل ألا يكون صحيحا -.(١)

تلك هي النظرة القرآنية إلى الكون، توجهنا وتضع أيدينا على مواضع الهداية إلى الإيمان من خلال البحث للعلماء فيه ومن خلال السير والنظر للاعتبار - لا للنزهة - بالنسبة للعامة.

- وجه الإفادة من الإعجاز العلمي للسنة -

من المعلوم بالضرورة أن السنة النبوية هي في المقام الأول المفسرة لمبهم القرآن والمفصلة لمجمله والموضحة لمشكله، ومن أجل هذا كان أسلوبها

---

(١) انظر كتاب «العلم والعمران» ص ١٣٦ ط المقتطف والمقطم سنة ١٩٢٨م.

أقرب إلى الأسلوب العلمي من أسلوب القرآن، لأنه ـ أي الأسلوب العلمي ـ هو الذى يحدد المفاهيم الغامضة ويمنع من الالتباس، ولهذا أمر بعض اصحاب النبي ﷺ أن يجادلوا خصومهم بالسنة، وقالوا تعليلا لذلك؛ لأن القرآن حمال ذو وجوه.

ولما كان علم الفلك هو صاحب المكانة الأولى عند العرب، لحاجتهم إليه في الترحل والانتقال في بيئتهم الصحراوية لذلك فأول ما نختاره هو أمثلة من السنة الصحيحة تتصل بموضوعه، وحتى لا تكون هناك مصادرة على المطلوب فسأرجىء دلالة الحديث إلى النهاية بعد مناقشته وبيان وجه إعجازه العلمي.

ويطالعنا ما رواه الإمام مسلم في صحيحه بشرح النووي عن أبي ذر قال : سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾ قال : مستقرها تحت العرش.(١)

ولاشك في أن أبا ذر يسأل عن مكان استقرارها حينما تنتهي الدنيا وتقوم الساعة فإن طلوعها في كل يوم مما يشعر بأنها لا تستقر بعد الغروب، وقد فهم ذلك من السؤال ومن الإجابة؛ السلف ومنهم الإمام مسلم نفسه، بدلالة ذكره لهذا الحديث وما ذكر بعده في باب «بيان الزمن الذى لا يقبل فيه الإيمان» وقد ابتدأ أحاديث هذا الباب بحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حت تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت من مغربها آمن الناس كلهم أجمعون....» الحديث، وبعد أن ذكر روايات أخرى بهذا المعني ذكر رواية عن أبي ذر، وهي التي استشكل بها بعض العلماء على علماء الفلك ظنا منهم أنها تعارض ما يقولونه، مع أن السبب في التعارض هو الفهم الخاطىء لأسلوب الحديث في شيء ما كان

---

(١) انظر جـ٢ ص ١٩٦ ط دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الآية رقم ٣٨ من سورة (يس).

ينبغي الخطأ فيه وهو الفعل الذي عبر به النبى ﷺ. فالحديث هو : عن أبي ذر أن النبى ﷺ قال يوما «أتدرون أين تذهب هذه الشمس. قالوا : الله ورسوله أعلم. قال : إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعي ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة..» الحديث إلى أن قال «فيقال لها: ارتفعي أصبحي طالعة من مغربك، فتصبح طالعة من مغربها، فقال رسول الله ﷺ : أتدرون متى ذاكم ؟ ذاك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا» وفي رواية أخرى عن أبي ذر؛ قال : دخلت المسجد، ورسول الله ﷺ جالس، فلما غابت الشمس قال : يا أبا ذر. هل تدري أين تذهب هذه ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم قال فإنها تذهب فتستأذن في السجود فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها، ثم قرأ في قراءة عبدالله وذلك مستقر لها»(١) فما يرفع الاشتباه في الحديث هو أن النبي ﷺ عبر بالفعل المضارع الذي يفيد التجدد والحدوث والاستقبال في موضعين، تتوسطهما «حتى» الغائية «تجري حتى تنتهي» فلو كان يريد حدوث ذلك لها في تلك الليلة، لجاء التعبير بألفاظ أخرى كأن يقول : أتدرون أين ذهبت... ذهبت أو جرت لتسجد، فالنبى ﷺ في تفسيره للآية لم يخرج عما هو معروف بالمشاهدة من أن الشمس لا تغرب وإنما غروبها عند قوم شروق عند آخرين، ولم يخرج عما تقضي به اللغة وما جاء في القرآن من أن جميع الكائنات تسجد لله عز وجل سجود تعظيم، وليس السجود الشرعي الذي نسجده في الصلاة بوضع الجبهة على الأرض، وقد وضحت ذلك قراءة شاذة، وهي إن كانت لا يتعبد بها لأنها ليست متواترة إلا أنها يحتج بها في

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ٢ ص١٩٤ : ١٩٦ ط دار إحياء التراث العربي - بيروت.

بيان المعنى لأنها وضعت تفسيرا، فإن كان سمع من النبي ﷺ فهو تفسير بالسنة، وإن كان التفسير من الصحابي فهو أعلم باللغة منا. هذه القراءة هي ﴿والشمس تجري لا مستقر لها﴾ أي في الدنيا أما قراءتنا «لمستقر لها» أي في الآخرة، كما أن الشمس لا تخرج عن كونها تحت العرش، فالكرسي الذي هو كحلقة في فلاة بالنسبة للعرش وسع السموات والأرض بنص القرآن الكريم ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾(١) ولهذا فالأحاديث وإن كانت تفسيرا لكنها لم تخرج عن المعطيات العلمية في ألفاظها، ويتفق مع هذه النظرة العلمية للشمس قوله ﷺ حين كسفت في يوم وفاة ابنه ابراهيم عليه السلام، وظن بعض الأصحاب وجود علاقة بين الحدثين: ﴿إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته...﴾ الحديث.(٢) فهو توجيه إلى التعرف على الأسباب العلمية للخسوف والكسوف لأنهما من علامات أن الله هو المسير للشمس والقمر وأنهما مسخران بأمره وتقديره.

وذلكم مثال آخر يحرص فيه الرسول ﷺ على تحقيق الهدف الأول للقرآن وهو الهداية للإيمان الخالص. يقول ﷺ فيما رواه ابن عباس قال : مطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ «أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر، قالوا : هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا. قال فنزلت هذه الآية ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ حتى بلغ ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾.(٣)

وقد اخترت هذه الرواية لإفادتها صدور ذلك من النبي ﷺ ابتداء قبل أن تنزل الآية، فالحديث إذن لم يقل تفسيرا للآية، ولأنها تبين أيضا :

---

(١) سورة البقرة آية الكرسي رقم (٢٥٥).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ـ كتاب الكسوف من الصحيح جـ٢ ص٥٢٦.

(٣) صحيح مسلم يشرح النووي جـ٢ ص٦١ ، ٦٢.

أن الكفر إنما هو كفر النعمة المقابل للشكر وليس المقابل للإيمان، وفي هذه توجيه من طرف خفي إلى جواز نسبة الشيء إلى السبب العادي مع اعتقاد أن الله هو الفاعل الحقيقي، كنسبة الرزق إليه سبحانه في بعض آيات القرآن، ونسبته إلى الإنسان في آية منه وهي قوله تعالى ﴿وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن...﴾(١) فلو لم يكن للأنواء تأثير ما ولو بالمباشرة لكانت نسبة المطر إليها كفرا حقيقيا يناقض عقد الإيمان. وهكذا لم يقف الحديث هو الآخر في وجه البحث العلمي، ولم يكن حجر عثرة في طريقه.

وذلك مثال آخر من السنة يتعلق بخلق الجنين في بطن أمه ذلك الذي ورد في المثال الثالث من أمثلة القرآن الكريم، وأذكر روايتين للإمام مسلم رجح النووي وبعض العلماء ـ قبل تطور علم الأجنة إلى صورته المذهلة في العصر الحاضر ـ الرواية التي تتعارض معه كما يرى أحد الباحثين، ورجح الباحث نفسه الرواية الأخرى لأنها أقرب إلى ما يقضي به علم الأجنة في العصر الحاضر، ويتعذر الجمع بين الروايتين في نظر الباحث.(٢)

الرواية الأولى هي رواية الإمام مسلم عن عبدالله بن مسعود ـ قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد...» الحديث.

والرواية الثانية عن ابن مسعود ـ من طريق أخرى قال «... أتعجب من ذلك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة؛ بعث الله إليها ملكا فصورها وخلق سمعها

---

(١) سورة البقرة الآية رقم (٢٣٣).

(٢) انظر : بحوث فى تفسير سورة العلق «ص٧٥» تأليف : م جمال الدين عياد. ط القاهرة.

وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال : يا رب أذكر أم أنثى...» الحديث(١)

هذه هي الأطوار التي يمر بها الجنين في الحديثين، والسنة كالقرآن في أن كليهما ليس كتاب فلك أو طب أو غير ذلك، ولكنهما كتابا هداية في المقام الأول جاءا بأسلوب بيانى يحمي الحقيقة العلمية ولا يرفضها، بل يشير إليها ويحث عليها.

والأطوار في علم الأجنة هي كالآتى :

الطور الأول ويبدأ بتلقيح البويضة إلى تمام التعلق بجدار الرحم والغوص فيه ويستغرق ثلاثة أسابيع.

ويبدأ الطور الثانى ببداية الأسبوع الرابع تقريبا، وينتهي بنهاية الأسبوع الثامن، ويتميز الحمل في هذه المرحلة بالنمو السريع، والتميز الذي تتكون به جميع الأجهزة والأعضاء الأساسية للجسم وتتضح به الملامح الرئيسية للشكل الخارجي.

والطور الثالث : يمتد من نهاية الأسبوع الثامن إلى المولد، ويتميز الحمل في هذه الفترة بسرعة النمو المذهلة، أكثر مما تتميز به بخلق الأعضاء والأجهزة المختلفة. ويقول مُعِّرب هذه الأطوار عن كتبها الأوربية :

على أن هذه التقسيمات لا تعنى بحال أن كل مرحلة قائمة بذاتها منفصلة عن الأخرى؛ إذ أن هذه المراحل يتصل بعضها ببعض ويؤدي بعضها إلى بعض.(٢)

---

(١) انظر : صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٦ ص١٩٠ : ١٩٣. ط دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

(٢) انظر : بحوث فى تفسير سورة العلق ص٨٦٩

إذن هذه التحديـدات تقـريبيـة في علم الأجنـة ذاتـه، وهـو مصـوغ بالأسلوب العلمي الذي يضع اللفظ للمعنى الواحد لا يجاوزه إلى غيره، فما يؤاخذ عليه الأسلوب الأدبي الذي عليه القرآن والسنـة من عـدم التحـديـد الدقيق لهذه الأطوار، أولى أن يـوجـه إلى الأسلـوب العلمي، لأن الأسلـوب الأدبي ليس هذا من شأنه، ويكفيه لإثبات كونه من عند الله عـز وجـل أو من كلام رسوله الكريم، ألا يجافي الحقيقة العلمية.

وبهذا المفهوم ومن هذه النافـذة ننظـر إلى الحـديثين فنجـد أنهما لا يتعارضان معا. كما لا يعارضان هذا الذى يذكره العلم مما نقلناه آنفا.

فالحديث الأول يخبر عن الأطوار بنهاياتها التى يتميز بها كـل طـور في رأي العين ويجمع بينها بأداة العطف «ثم» التي تشير إلى طول الزمن في الطور الواحد وكثرة الأحداث فيه ولا يخرج الحمل عن صفاته الكاملة عنـد الطور التالي بل تكون هناك صفات مشتركـة في الطـورين، فطـور العلقـة مشترك بهـذه الصفـة بين جميـع الأطـوار إلى الـولادة لأنـــه دائم التعلق والاتصال بجدار الرحم بالحبل السُّـرِّي.

والحديث الثانى الذى يجعل تصور الجنين بعد اثنتين وأربعين ليلـة، فيه اختيار للمدة التي يتميز تصور الجنين فيها للعين، وإن كـانت بـدايـة تصور الجنين في الأسبوع الرابع كما يقول علم الأجنـة، لأنـه في تلك المـدة السابقة لما هو مذكور في الحـديث لا يكـون متميـزا عن جنين الحيـوانـات الأخرى، كما هو مشاهد من الصور التي تدرس في كتب الأحياء.

والحد الفاصل بين ما هو من مقدور العلم وما ليس من مقدوره؛ هو نفخ الروح الذي يكون بـه الجنين خلقـا آخـر كما يقـول القـرآن الكـريم، وبالروح يعتبر بشرا سويا، وكتابة رزقه وأجله، فهذا مما لا يـوصـل إليـه علم الهندسة الوراثية، وإن تقـدم إلى الـدرجـة التي أدخلت على الملحـدين منهم الغرور فأصبحو يذكرون أن في الإمكان العلمي التوصل إلى مخلـوق حَسب الطلب، وما ذلك بممكن لأن الروح والرزق والأجل، كـل ذلك خـارج

عن موضوع العلم الحديث الذى لا يبحث إلا فيما يدرك بالحواس، وذلك مناط الإعجاز.

هذا ولا يخفي على أحد ما في هدي الرسول ﷺ في علاجات الأدواء بأنواع من الأدوية، وبالتوجيه إلى طرق الوقاية من بعضها، مما أفردت له أبواب في كتب الحديث الصحيحة كالبخاري ومسلم وغيرهما، ولنأخذ مثالا أو مثالين نستدل بهما على غيرهما في هذا الموضوع.

الأول يتعلق بما يسمى الحجر الصحي في هذه العصور، فإن عدُّوه من مفاخرها فإن العصر الأول للإسلام هو الأولى بالفخر، إذ كان الرسول ﷺ هو أول داع إليه، مع تنبيهه إلى وجه الهداية الإيمانية، وأن الإصابة بالأمراض خاضعة لمشيئة الله سبحانه، وهذا فيما رواه الإمام مسلم عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ «الطاعون رجز أو عذاب أرسل على بني إسرائيل أو على من كان قبلكم فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه. وقال أبو النضر لا يخرجكم إلا فرار منه».(١)

وفي الروايتين كما نرى توجيه إلى الاحتياطات الكاملة لمواجهة هذا المرض بمنع الدخول إلى مواطن الإصابة أو الخروج منها، حتى إذا تأكدنا من خلو بعض الموجودين بمكان المرض منه؛ أخرجناهم للفرار من انتقال المرض إليهم كما يدل على ذلك قول أبى النضر، ولا يصادم هذا ما يقضي به العلم اليوم من انتقال الأمراض بطرق مختلفة من المرضى إلى الأصحاء.

وقد ارتبطت هذه الأحاديث بأحاديث أخرى في الطيرة والتشاؤم تأكيدا على الهداية الإيمانية في أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك تنفيذا لمشيئة الله تعالى وإرادته.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٤ ص٢٠٤.

وكان هذا في حديث لمسلم ـ أيضا ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لا عدوى ولا طيرة ولا صفر ولا هامة.(١)

وأضاف أبو هريرة في أحاديث أخرى ما يصحح الفهم لتلك الرواية باضافته إلى النبي ﷺ «لا يورد الممرض على المصح».(٢) فإن جملة «لا عدوى..» من حيث هي كلام لابد فيها من مسند ومسند إليه كما يقول النحاة والمسند هنا وهو خبر «لا» يكثر حذفه عند الحجازيين ويجب عند التميميين،(٣) ولهذا فلابد، من تقدير المحذوف عند بيان المعنى حتى يتضح، ولابد من تقديره بما يتفق والروايات الأخرى. كالتي فيها تلك الإضافة من أبى هريرة، أو التي فيها «وفر من المجزوم فرارك من الأسد»(٤) ولهذا كان التقدير الصحيح للمحذوف؛ لا عدوى مؤثرة بذاتها، ونفي التأثير بالذات لا ينفي الوجود، وهذا مناط الهداية إلى العقيدة الصحيحة والإعجاز العلمي في وقت واحد.

ونشير في هذا المقام إشارة عابرة إلى حديث وقوع الذباب في الإناء، ذلك الذي يتذرع به الملحدون في الطعن على الإسلام، أو يتذرع به الجاهلون في القول بأن في صحيح البخاري ما ليس بصحيح ؟!

وهذه الإشارة هي طرح هذا التساؤل على من يتشدقون بذلك؛ هل عرف العلمُ الكلمة الأخيرة في هذا الموضوع أو غيره حتى ينفي صحة ذلك ؟ والجواب على لسان أساطين العلم الحديث :لا. فكلما ـ والقول لأنشتين ـ تعمقنا في العلم أدركنا مدى الجهل الذي كنا فيه... إلى أن قال : فالعلم يحاول أن يعرف المزيد دائما، ولكن هناك احساس بأنه لا يتقدم كثيرا لأن حجم الأشياء التي لا نفهمها يتضخم هو الآخر تدريجيا.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٤ ص٢١٣.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٤ ص٢١٦.

(٣) انظر البحر المحيط لأبي حيان جـ١ ص٤٦٣، ٤٦٤ ط الرياض.

(٤) رواية مسلم : كان في وفد ثقيف رجل مجذوم فأرسل إليه النبي ﷺ : إنا قد بايعناك فارجع. جـ١٤ ص٢٨٨.

ويقول «روجر بيكون» إنه لا يوجد عالم من علماء الطبيعة يستطيع أن يعرف كل شيء عن حقيقة ذبابة واحدة وخواصها فضلا عن أن يعرف كنه ذات الله».(١)

فإن قال : قد عرف العلم الكلمة الأخيرة في هذه المسئلة بعينها بعد «أنشتين»، «بيكون» وأنه ليس في أحد جناحيها شفاء !

نقول له : أبحثت هذه المسألة من ناحية علم النفس وتأثير العقيدة على الغدد الصماء التي تتحكم في السلوك، وتقلب بعض الأمراض غير العضوية إلى أمراض عضوية، وتشفي من بعض الأمراض العضوية عن طريق تقوية جهاز المناعة، بإفرازاتها غير القنوية التي تنتشر في الدم مباشرة؟

أستطيع أن أقول إن هذه الناحية من البحث لا تزال بكرا، وستظل بكرا حتى يقوم باحث مسلم غيور على دينه ومحب لرسوله ببحثها وتصديق رسولنا ﷺ في هذه المسألة أيضا كما صدق في غيرها، أما غير المسلمين فلا يعينهم بحث ذلك، بل يودون البقاء لتلك الشبهة لعدائهم للإسلام ورسوله. وقد يعلل لنا بحث هذه المسألة ما نراه من العلاج بالرقي الشرعية تلك التي بغير تعليل علمي إلى الآن والبعض ينكرها، مع أنها واقع مجرب إلى الآن.

هذا ومن قراءاتي المتواضعة عن الغدد الصماء، قوي لدي هذا الإحساس بأن هناك صلة ما بين عمل تلك الغدد الذي تحكمه العقيدة النفسية، وبين الشفاء، وإن كنت لا أستطيع البرهنة على ذلك لعدم التخصص، ولكني أقنع بها في الدعوة إلى الله عز وجل بعض العقول التي لا تصدق إلا بماله تعليل علمي.

---

(١) انظر كتابنا «هداية القرآن الكريم وإعجازه في آية الكرسي ص٢٤، ٢٥ ط دار التوفيق النموذجية بالأزهر سنة ١٩٨٢م.

«الإعجاز العلمي للقرآن والسنة من الناحية النظرية»

أخرت ـ عن عمد ـ الحديث عن هذا الموضوع، مع أنه يذكر عند كثير من الباحثين أولا؛ النظريـة ثم التطبيق، حتى لا يظن بنـا تغليب العـاطفـة الدينية، ـ وإن كان ذلك مما يمدح به ـ وأننـا ممن يلـوي النصوص لتدل على مدعاه فبعد الحديث عن الناحية التطبيقيـة يصبـح من السهـل تعقـل الأدلة النظرية ودخولها من السمع إلى القلب بلا آذن أو استئذان.

وأقول : لا يختلف اثنان في أن القرآن الكريم هو معجزة الرسول ﷺ لابتناء نبوته عليه، وهـو في الوقت ذاته دستور الهداية إلى الله عـز وجـل وإلى ما يصلح البشر جميعا في دنياهم وأخراهم، وفي ذلك قوله تعالى ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا...﴾،(١) ﴿وما أرسلناك إلا كـافـة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾،(٢) ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إلـيَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ...﴾،(٣) ﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾،(٤) ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنـزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميـد﴾،(٥) ولا يخـفـي ما في هذه الآيات من الدلالة على عموم رسالته ﷺ إلى جميع البشر ليخـرج الناس جميعا بالقرآن من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، وأن العلماء أكثر الناس إدراكا لكون القرآن من عند الله تعالى

---

(١) سورة الأعراف الآية رقم «١٥٨».

(٢) سورة سبأ الآية رقم «٢٨».

(٣) سورة الأنعام الآية رقم «١٩».

(٤) سورة إبراهيم الآية رقم «١».

(٥) سورة سبأ الآية رقم «٦».

وأحقية الرسالة وصدق الرسول، بل هناك ما هو أصرح في الدلالة على ذلك كقوله تعالى ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾،(١) ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾(٢) فذكر الهدى والكتاب المنير مع العلم يفيد أنه العلم المادي، ويفيد ذلك أيضا قوله تعالى ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾،(٣) فالمشار إاليه خلق السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان. كما يفيده قوله تعالى ﴿ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾،(٤) هذا وفي قصر الخشية على العلماء وهو جميع «عليم» أي المبالغ في العلم إشارة إلى أنه كلما ازداد العالم علما بالكون وظواهره مما ذكر في الآيتين ازدادت خشيته لله تعالى، وكأنه الذي يخشى دون غيره، وهو ما يفيده القصر الادعائي. وهكذا القرآن الكريم في دعوته وفي حديثه عن الأمور الكونية؛ حين يعرض لآية كونية في معرض من معارض الهداية يتحدث عنها حديث المحيط بعلوم الكون الخبير بأسرار السموات والأرض الذي لا تخفى عليه خافية في البر والبحر أو في النجوم والكواكب، والسحب والماء والإنسان والحيوان والنبات والجماد بأسلوب بيانى يدل على أنه خالق اللغة - أيضا - وخالق جميع الكائنات.

ويكفينا في تشجيع النبي ﷺ لتعلم العلوم الكونية قوله صلوات الله

(١) سورة العنكبوت الآية رقم «٤٩».

(٢) سورة الحج الآية رقم «٨».

(٣) سورة الروم الآية رقم «٢٢».

(٤) سورة فاطر الآيتان رقم «٢٧، ٢٨».

وسلامه عليه «أنتم أعلم بأمر دنياكم»(١) وتركهم يتصرفون بها في معايشهم، لأنها من هدي الله تعالى لهم. وهي مظهر التحقيق لحكمة استخلافهم في الأرض. أما قوله ﷺ «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا».(٢) فالمراد به كما يقول ابن كثير في تفسيره : أي لا نفتقر في عبادتنا ومواقيتها إلى الحساب هذا فضلا عن أن الإخبار عن ذلك لا يستلزم النهي عن تعلم الكتابة والحساب لتباين الخبر والنهي لفظا ومعنى كما يقول ابن العربي في مثل هذا الموضع. والله تبارك وتعالى أعلم وهو حسبنا ونعم الوكيل ونسأله ألا يؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا إنه سميع مجيب.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٥ ص١١٨ ط دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الصوم - باب قول النبي لا نكتب ولا نحسب، وتفسير ابن كثير له في الجزء الأول ص(١٦٧) ط دار الشعب بمصر.

أهـــم المراجـــع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٣ ـ تفسير القرآن الكريم والعلوم الحديثة ـ رسالة دكتوراه للمؤلف بمكتبتي كلية أصول الدين وكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة.

٤ ـ البحر المحيط لأبي حيان ط المكتبة الحديثة بالرياض.

٥ ـ بحوث في تفسير سورة العلق م جمال الدين عياد ط القاهرة.

٦ ـ الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي ط دار إحياء التراث العربي سنة ١٩٨٥ بيروت.

٧ ـ صحيح مسلم بشرح النووي ط دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٨ ـ العلم والعمران ـ بحوث مجمع التقدم العلمي البريطانى ـ مترجم ط المقتطف والمقطم بمصر.

٩ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري ـ لابن حجر ـ ط السلفية بمصر.

١٠ ـ القرآن والطبائع النفسية د. العماري ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر

١١ ـ الماء غذاء ودواء د. عبدالعزيز شرف ـ ط الهيئة المصرية للتأليف والنشر.

١٢ ـ المسائل الكافية للشيخ محمد بن يوسف الكافي ط حجازي بالقاهرة.

١٣ ـ هداية القرآن الكريم وإعجازه في آية الكرسي ـ المؤلف ـ ط دار التوفيق النموذجية بالأزهر.